**مرتبة الاحتساب في الدين**

**مقدمة: د. مجدي عبد العظيم إبراهيم**

مما لا شك فيه ولا يخفى على كل ذي عقل أن موضوع الحسبة في ديننا الإسلامي العظيم وارتباطها به هي بمثابة العمود الفقري لجسد هذا الدين؛ فإن كان سليمًا معافى كان ذلك ثباتًا وصلابة لهذا الجسد وإن أصيب أو مرض كان ذلك اعتلالاً وسقوطاً له، فالاحتساب بجانبيه الديني والسياسي من أرفع الدرجات في هذا الدين، به تقوم أركانه وبدونه يضمحل جسده ويسقط بناؤه.

ولقد ورد الكثير من الآيات في كتاب الله الكريم مما يجعلنا نعي مدى منزلة وشأن هذه الفريضة العظيمة نذكر على سبيل المثال قول الله تعالى:(والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)([[1]](#footnote-1)).

ويفهم من هذا مدى عظم الرسالة الإلهية التي من أجلها خلق الإنسان وهي إقامة شرع الله وفق القواعد والتعاليم بداية من خلق الإنسان وتتالي نزول الشرائع السابقة والتي حمل رايتها الرسل والأنبياء الأوائل واكتملت بخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته الخاتمة المتممة لكل ما سبق والتي كان من خلالها اكتمال المقصد وتحقق الغاية باتباع مقاصد الدين وإنفاذه من بني الإنسان، والذي حُدد له طريق واحد كل ما خلاه كان خسرانًا وضياعًا، ألا وهو صيانة شرع الله واتباع كل ما هو معروف واجتناب نواهيه، فكان الحث على التناصح والتسابق بالعمل الصالح والحفاظ على الطاعات والصبر على كل أذى والوقوف أمام كل ما هو فاسد ومنكر، احتسابًا لوجه الله تعالى ونيلاً لجزائه بتحقق المقصد واكتمال الغاية التي من أجلها خُلق العباد إعلاء لشرعه، فسبحانه خلق العباد وأوجد تدبيره لهم.

كما ورد في السنة النبوية المطهرة الكثير منها على سبيل المثال لا الحصر قال صلى الله عليه وسلم: "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا"([[2]](#footnote-2)).

وهنا من خلال هذا الحديث العظيم الذي يظهر أهمية ممارسة الحسبة السياسية ودور القائمين عليه في استقامة الأمور وفق إطار ومنهج الشرع الحنيف، ومدى الثمار الناتجة عن ذلك، ويظهر ذلك في الحديث السابق أن السفينة هي المجتمع وأن ركاب هذه السفينة هم أفراد المجتمع الذي يتكون ممن هو حريص على حدود الله وقائم لها بمنع أي منكر والتصدي له، وآخرين يفعلون المنكرات والمحرمات؛ لذلك لن يستطيع المجتمع والممثل في أفراده بالوصول إلى بر الأمان إلا بمن يقوم بمواجهة هذه المنكرات والتصدي لها، وهنا يبرز دور الحسبة السياسية الذي يتعدى نطاق النصح والإرشاد وبيان الحلال والحرام بالتصدي لذلك بضبط التعاملات المادية القائمة بين أفراد المجتمع بإجراءات تنظيمية نابعة من السياسة المطبقة لإدارة شؤون المجتمع بما يصون حقوق أفراده وحفظ مصالحهم ومصالح مجتمعهم.

بمعنى أن للحسبة السياسية دورًا وشأنًا عظيمًا في تنظيم وتهذيب كل مجريات التعامل القائمة بين الناس، وحفظ الحقوق فيها، ورد المظالم، وإصلاح شأن كل ما هو معوج وغير سليم، وإلا لانتشر الظلم وسلبت الحقوق وضيعت الأمانات وانهار المجتمع بكل تفاصيله، فقيام الحسبة السياسية ورجالها بدورهم التوعوي، وإظهار حدود الحلال والحرام، وإيضاح سبل الخير والرشاد والحث عليها، والوقوف أمام كل شبهة وظلم وجور سياج أمن ونجاة للمجتمع وأفراده، وتحقيق كل مقاصد الشرع؛ وذلك لأنه بدونها ضياع للتكريم الإلهي لبني الإنسان بيد الإنسان بضياع مقاصد الخيرية التي من أجلها أنزل هذا الدين.

ومن أقوال العلماء في عظم درجة هذه الشعيرة العظيمة: "أما بعد فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة واضمحلت الديانة وعمت الفترة وفشت الضلالة وشاعت الجهالة واستشرى الفساد واتسع الخرق وخربت البلاد وهلك العباد ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد، وقد كان الذي خفنا أن يكون فإنا لله وإنا إليه راجعون إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه وأن ينمحي بالكلية حقيقته ورسمه فاستولت على القلوب مداهنة الخلق وانمحت عنها مراقبة الخالق واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم وعز على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم فمن سعى في تلافي هذه الفترة وسد هذه الثلمة إما متكفلاً بعملها أو متقلداً لتنفيذها مجدداً لهذه السنة الداثرة ناهضاً بأعبائها ومتشمراً في إحيائها كان مستأثراً من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إماتتها ومستبداً بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها"([[3]](#footnote-3)).

وقال الإمام النووي –رحمه الله-: "اعلم أن هذا الباب –أعني باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر-قد ضُيع أكثره من أزمان متطاولة، ولم يبق منه في هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جدًّا،وهو باب عظيم،به قوام الأمر وملاكه،وإذا كثر الخبث عم العقاب الصالح والطالح، وإذا لم يأخذوا على يد الظالم أوشك أن يعمهم الله بعقابه كما قال سبحانه: (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم)([[4]](#footnote-4))، فينبغي لطالب الآخرة والساعي في تحصيل رضا الله –عز وجل- أن يعتني بهذا الباب فإن نفعه عظيم،لاسيما وقد ذهب معظمه، ويخلص نيته، ولا يهابن من ينكر عليه بارتفاع مرتبته، فإن الله تعالى قال: (ولينصرن الله من ينصره)([[5]](#footnote-5))، وقال سبحانه وتعالى: (ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم)([[6]](#footnote-6))، وقال تعالى: (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) ([[7]](#footnote-7))، وقال تعالى: (آلم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم .. وليعلمن الكاذبين)([[8]](#footnote-8))" ([[9]](#footnote-9)).

يتضح لنا قدر وأهمية الحسبة السياسية في ديننا الإسلامي وعلو ورفعة درجتها في تحقيق مقاصد الشرع الحنيف، وتحقيق رضا الله سبحانه وتعالى، وثبات أمر هذا الدين بإنفاذها في أوصال هذا الدين، والوقوف أمام كل ما هو منكر ومفسدة وإصلاحه وضبط مجريات التعامل في الحقوق بين العباد وصيانة حقوقهم واستيفائها من كل شخص مهما عظم أمره فالجميع -حاكم ومحكوم- أمام الله سواء، فكانت ممارسة الحسبة السياسية رفعة لشأن هذا الدين وتركها والابتعاد عنها اضمحلال واندثار للمقاصد التي من أجلها شرع هذا الدين.

1. () سورة العصر، الآيات:1 - 3. [↑](#footnote-ref-1)
2. () البخاري، في صحيحه رقم 2313. [↑](#footnote-ref-2)
3. () الغزالي، إحياء علوم الدين، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تأليف: ، 306/2. مرجع سابق28. [↑](#footnote-ref-3)
4. () سورة النور، الآية: 63. [↑](#footnote-ref-4)
5. () سورة الحج، الآية: 40. [↑](#footnote-ref-5)
6. () سورة آل عمران، الآية: 110. [↑](#footnote-ref-6)
7. () سورة العنكبوت، الآية: 69. [↑](#footnote-ref-7)
8. () سورة العنكبوت، الآيات: 1-3. [↑](#footnote-ref-8)
9. () النووي، 1/300-301. مرجع سابق ص70. [↑](#footnote-ref-9)